قراءة في كتاب (أطياف ومرايا) لعصام الشريف

د. هيفاء حمودة، سوريا

اشتمل كتاب (أطياف ومرايا) لعصام الشريف[22] على العنوانات التالية:

(تدريبات على جملة وامضة)، (أطياف ومرايا)، (برامج)، (حنين)، (أقنعة)، (دروب ومواجهات)، (اسم موصول)، (لم أكن أنا)، (متفرقات).

في رحاب الكتاب

كطائر محلق في سماء رحلة معرفية جمالية إلى داخل الذات الإنسانية والطبيعة البشرية في رحلتها مع الحياة من الداخل والخارج، هكذا نتمايس في رحاب الكتاب. حيث نمتطي منظار المعرفة لنجوس من خلاله دواخل الحكايات والرؤى، رؤى حكائية مما يعتمر في ثنايا النفس البشرية، والكثير مما يغزوها في نزاعاتها وتحاوراتها ومحاكماتها، ونسير مع السارد الذي يقفز بنا من زاوية سردية إلى أخرى بخفة ومهارة، لنقف معه عند بؤر التوتر، وميزان الصور. وبدوره، يجوس معك دروب الحقيقة، بحلوها ومرها، فيسلط الضوء على جوانب قد تخفى، بل هي فعلاً تخفى على القارئ

[22] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الرابع في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، مايو 2015.

obeikandi.com

العادي: فقد يدخل في سراديب العتمة، أو يقف أمام مرآة الروح، وتدرجات الوجود والكينونة في سمار الظل، ليكشف ما يختفي وراء الهيئة والشكل، أو ليتبين له في النهاية خفايا موجودة في النفس، والنظر قصير عن إدراكها.

- (أطياف ومرايا)

(المرآة ــ تأمل الذات ومعرفتها)

المرآة في هذه الومضات ليست سطحاً صقيلاً يعكس ما نقوم به من حركات، بل هي الطريق لمعرفة النفس، وعند النظر فيها يمكن لصاحب العين النافذة أن يغير من ذاته. كما يمكن أن تعني النور؛ أو تجليات الله المنعكسة على حقيقة الوجود. والهدف من النظر بالمرآة هو التـأمل في الذات ومعرفتها كما في الومضات (عري، ندبة، جلاء واستجواب)، لأن معنى نظرة العين فيها يماثل النظر إلى المرآة حيث ينعكس ما جال في مخيلة الشخصية الناظرة.

وللطيف نصيب في هذا السفر الجمالي الفني، والطيف هو شيء من الخيال يداعب منام الإنسان لشدة تفكره وانشغال ذهنه بأشياء تتهادى في ذهنه: ومثال ذلك طيف الحبيب، كما في (مشاطرة) و(افتقاد) و(طيفها)، أو طيف الوطن كما في (غربة، غربتان).

(وفي وقت الاستواء، يغيب عنك ظلك، فيك، وظل حقيقتك)

وقف الكاتب وقفات مهمة عند عالم الظل، العالم الواسع بأطيافه، الغني بمعانيه النفسية والفلسفية والصوفية، كما تعامل مع العديد من رموزه الدلالية. فالظل ليس كينونة مظلمة، بل هو وجود انبعاثي، ولحظة امتلاء مشدودة دائماً باتجاه الشيء المنفصل عنها، ونلمح ذلك في (اكتشاف) و(إدراك)، وهو أيضاً لحظة وجودية مرتبطة بالظهور والانكشاف، كما يمكن أن يكون لحظة إلهام وتنوير روحي. ناهيك عن أنه قد يحمل معاني سلبية؛ كافتقاد الظل، أو انكساره الذي "يوحي بأن عائقاً ما، أو قوة أدت إلى الانكسار". (د. جمال الجزيري).

القسم الثاني من الكتاب، وتحت عنوان "برامج"

نتوقف أمام قسم حافل بموضوعات الساعة، وترميز الواقع، وفيه تدور عينا الكاتب في اتجاه آخر مختلف، وتعاين مرحلة واقعية معينة، حيث نجح الكاتب فيها باستحضار الرموز والدلالات المناسبة للوقائع الفكرية، ونلحظ ذلك بوضوح في (غنم غنم) و (فراق) و (اعتياد) و (كأس العالم) و (نصير)...، والدينية كما في (استعداد ، دعوى).

القسم الثالث من الكتاب، وتحت عنوان "حنين"

ندخل مع الكاتب عالماً داخلياً تتجلى فيه المشاعر برموزها الإنسانية، ونعايش حالة الدخول في شجون العاطفة والمشاعر التي تمس

الروح والوجدان، من أجل هذا نجد أنه قسم حافل وريان بالصور المغلفة بمدلولاتها ورموزها، كما في (فرحة حزينة) و(افتقاد) و(حلم).

القسم الرابع من الكتاب، وتحت عنوان "أقنعة"

وهو قسم غني جداً برموزه الحياتية التي تفضح وتعري زيف الشخصيات المخادعة كما في (فيسبوك)، أو المتقلبة كما في (الحرباء)، وكذا الوصولية التي تعاشر أوهامها كما في (وهم قاتل)، والشخصيات المقنّعة بوجوه مختلفة الأشكال والألوان، كما في (تنكر) و(جدلية)، وذلك من خلال لحظة الإدهاش والمفارقة.

القسم الخامس من الكتاب، وتحت عنوان "دروب ومواجهات"

ندخل مع الكاتب ثانية إلى عالم تقلبات النفس الإنسانية، ولكن ربما بطعم آخر. حيث هناك الضعف والقوة، الصلابة في تحدي المستحيل كما في (إنكار)، وبين التجاوزات الداخلية للنفس البشرية كما في (أين المفر)، والصراع القوي بين الإنسان وشيطانه كما في (حضرة) و(تماهٍ)، حيث تكثر في هذا القسم الرموز المناسبة للخلفيات الفكرية الحاملة لمعانيها (الشيخ، المريد ...).

القسم السادس من الكتاب، وتحت عنوان "لم أكن أنا"

ربما هو طريق البحث عن الذات والنجاة من العدمية الداخلية، وقد يكون غير مفصول كثيراً عن ذهنية الكاتب في باقي الأقسام، إلا أنه يتمتع بميزة الإيغال أكثر في الرموز والإيحاءات، الصحراء، الحنين والاغتراب، الذاكرة، التعامل مع الحواس المتمثلة: بالسمع والبصر واللمس، كما في (اتهام) و (استدعاء).

في الأقسام الأخيرة من الكتاب (الاسم الموصول، متفرقات)؛ فإننا نتوقف عند ومضات الاسم الموصول التي أبدع فيها الكاتب إبداعاً مدهشاً كما في (تصفيق، تعثر).

الحقول الدلالية:

أما في الحقول الدلالية المختلفة، فنجد الكاتب قد استخدم مجموعة دلالات كلها توجت سياقاتها وتماهت مع منظومها السردي الدلالي. وأشير هنا إلى بعضها.

(الحيوان): الثعلب، الذئب، الثعبان، الأفعى.

(الألوان): الأبيض، الأسود، الأصفر، الأحمر.

(المكان): الصحراء، المسرح. الجبال، التلة، الفضاء، سماء.

(الداخلي): القلب، الذات، العقل، الذاكرة، الطيف، الخيال إلخ ...، ودلالات التضاد، الإنسان، الشيطان، البعيد، القريب.

(الحواس): السمع، البصر، اللمس، الشم، التذوق، والدلالات المعنوية كالبصيرة.

السرد:

وكما أشرنا سابقاً؛ فقد تأكد لنا أن الكاتب يتقن اختيار الزوايا السردية المناسبة، سواء الخارجية منها أو الداخلية. وفي تعريف زاوية الرؤية؛ فإننا نجد أنها بمعنى من المعاني "مسألة تقنية ووسيلة من الوسائل لبلوغ غايات وطموح السارد" حسب بوث Booth (بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، لحمداني، ص46).

إن الهدف من إيجاد هذه الزاوية وإتقانها "هو التأثير على المروي له وعلى القراء بشكل عام" (المصدر السابق). وقد اجتهد الكاتب في الوقوف الذكي في زواياه السردية مستخدماً الضمائر المناسبة. وسار قدماً في حقل الرموز اللغوية والتعبيرية الساخرة الحادة والموحية، واستخدم المفارقات المدهشة واللغة المكثفة المرنة المناسبة لسياق الفكرة.

إن كتاب "أطياف ومرايا" يعكس بشكل عام فكر وذهنية الكاتب، وثقافته، ومدى رؤيته للحياة والوجود، والكثير مما يدور في هذا الكون،

وهي رؤية واسعة استنبطها من الواقع العام الخارجي، وكذلك العالم الداخلي العميق، واتخذ موقفه من التشكيل الجمالي لهذه الرؤية، كذلك على صعيد (الرؤيا)؛ فإننا نجد عند الكاتب الدلالة على الوعي بما يدور حوله من معطيات فكرية واجتماعية، والتي قام بتوظيفها لتجاوز الواقع الفردي والاجتماعي....

هذا غيض من فيض، ومداخلة تحليلية سريعة، من الثابت أن كل محطة فيها تحتاج لوقفة متأنية سابرة لتقنيات وجماليات هذا الفن الدقيق والصعب، الذي يحتاج إلى الموهبة والممارسة، وإلى الثقافة والقراءة المستمرة، والتجارب في الغوص العميق والعريض في آفاق النفس البشرية، وسبل الحياة وأشكالها وإشكالاتها.

opelikandi.com